ابن زهر

(الحفيد)

وشاح الأندلس

دكتور
فوزي سعد عيسى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزي وشركاه

إهـــداءُ

إلى إبنتي . . . . رانيـــا . . . .

مقدمة

إستحدث الأندلسيون فن الموشحات فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وكان هذا الفن الجديد ثورة حقيقية على النمط التقليدى للقصيدة العربية ، وقيض للاندلس أن تحظى بكوكبة من الوشاحين فى أجيال متعاقبة كان لهم أثر واضح فى تطور هذا الفن وازدهاره . ولا تذكر أسماء مشاهير الوشاحين فى الأندلس إلا ويذكر معها اسم ابن زهر الحفيد، فهو واحد من أبرز وشاحى الأندلس ، وهو ليس وشاحاً عادياً ، بل هو صاحب مدرسة فى فن التوشيح هى مدرسة الطبع والبساطة ، وقد أدرك ذلك أسلافنا القدماء ، فوصفوه بأنه أول من عصر سلافة التوشيح لأهل الأندلس ، وأنه انفرد بطريقة متميزة كانت هى الغاية والمطمح لمن جاء بعده من الوشاحين .

ومع هذه المكانة البارزة التى تبوأها ابن زهر بين معاصريه ، وعلى مر العصور ، فانه لم يحظ - فيما أعلم - بدراسة تكشف عن خصائص فنه، وتضعه فى مكانه اللائق به ، وقد أخذت أتتبع أخبار ابن زهر وأشعاره وموشحاته فى المظان المختلفة حتى تجمعت لدى مادة تستطيع أن تنى بما يصور الجوانب المختلفة لهذا الوشاح المبدع .

واقتضت طبيعة هذا البحث أن يشتمل على ستة فصول ، فخصصت الفصل الأول لاستقصاء أخبار بنى زهر وتتبع جهودهم فى الطب والأدب، وفى الفصل الثانى عنيت بالحديث عن حياة ابن زهر الحفيد وصلاته وثقافته .

أما الفصل الثالث فقد مهدت له بالحديث عن نشأة الموشحات وتطورها ثم تناولت بالدراسة الموضوعات التى أجاد فيها ابن زهر فى موشحاته . وفى

الفصل الرابع درست جوانب الشكل الفنى فى موشحات ابن زهر فتناولت فيه طريقته فى بناء الموشح ، ومظاهر التجديد عنده فى الموسيقى واللغة والصور الفنية .

وفى الفصل الخامس تحدثت عن منزلة ابن زهر الأدبية ومكانته بين الوشاحين .

أما الفصل السادس فخصصته للحديث عن ابن زهر الشاعر فى حدود ما وصلنا من نماذج شعرية عثرنا عليها فى المصادر المختلفة .

وحتى يستكمل البحث جوانبه ، أوردنا فى ختامه ما أبقته لنا الأيام من آثار ابن زهر فى الشعر والموشحات .

ونأمل أن يسد هذا البحث فراغاً فى المكتبة الأندلسية ، والله نسأل أن يوفقنا ويهدينا إلى سواء السبيل . . ؟

الاسكندرية فى يوليو ١٩٨٣

الفصل الأول

بنو زهـــر

وجهودهم فى الطب والأدب

ينتمى ابن زهر الحفيد إلى أسرة شهيرة توارثت زعامة الطب فى العصور الوسطى على مدى ستة أجيال ، بدءاً بعميدهم الأكبر محمد بن مروان بن زهر وإنتهاء بأبى محمد عبد الله بن الحفيد أبى بكر ابن زهر .

وكانت جهود أسرة بنى زهر فى الطب تتويجاً لجهود أطباء أندلسيين سبقوهم على شاكلة أبى الصلت أمية بن عبد العزيز الدانى، وابن باجة، وسفيان الثورى ، وابن وافد الطليطلى ثم أبى الوليد بن رشد صاحب كتاب « الكليات » الذى تداوله الناس ونال شهرة واسعة فى العصور الوسطى « إذ أنه يتناول التشريح ووظائف الأعضاء والأمراض وأعراضها والأدوية والأغذية وحفظ الصحة والعلاج » . (١)

ثم آلت رئاسة الطب إلى بنى زهر ، فتوارثوها جيلا بعد جيل ، وحظوا بمكانة كبيرة لدى الخلفاء والأمراء ، ولم يقتصر الاشتغال بالطب على رجال بنى زهر وحدهم بل شاركتهم فى ذلك نساؤهم فاشتهر منهن بالطب أخت الحفيد ابن زهر وابنتها اللتان يصفهما ابن أبى أصيبعة بأنهما كانتا « عالمتين بصناعة الطب والمداواة ، ولهما خبرة جيدة بما يتعلق بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان إلى نساء المنصور ولا يقبل (لمداواة) أهله إلا أخت الحفيد أو بنتها » (٢).

وقد يكون من المفيد لجلاء الصورة أن نقف على جهود كل واحد منهم على حدة :

محمد بن مروان بن زهر :

هو عميد عائلة ابن زهر والجد الأكبر لابن زهر الحفيد وشهرته أبو بكر

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسى ، بالنثيا ، ص ٤٦٩ .
(٢) طبقات الأطباء ٢/٧٠ .

اشتغل بعلم الحديث فى طليطلة ، وروى عنه بها بعض المحدثين مثل حاتم بن محمد ابن مصنف أبى عبد الرحمن النسائى(١).

وقد وصف محمد بن مروان بأنه « كان عالماً بالرأى ، حافظاً للأدب ، فقيها ، حاذقا بالفتوى ، متقدماً فيها ، متقناً للعلوم ، فاضلا ، جامعاً للدراية والرواية ، وتوفى بطلبيرة سنة ٤٢٢ هـ وهو ابن ست وثمانين سنة » (٢) .

عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر :

وهو أول من اشتغل بصناعة الطب من أسرة بنى زهر ، ولذلك يعتبره بعض المؤرخين العميد الأعلى لبنى زهر وصاحب هذا البيت الشهير بالأندلس (٣)

وقد رحل عبد الملك هذا إلى المشرق ، وتطبب به زمناً ، وتولى رئاسة الطب ببغداد ، ثم بمصر ، ثم القيروان ثم قفل إلى الأندلس واستوطن مدينة دانية ، وطار ذكره فيها إلى أقطار الأندلس والمغرب ، واشتهر بالتقدم في علم الطب حتى تفوق على أهل زمانه . (٤)

ويذكر ابن أبى أصيبعة أن عبد الملك بن زهر حظي بمكانة كبيرة فى بلاط مجاهد العامرى ملك دانية فى ذلك الوقت ، حيث أكرمه إكراماً كثيرا ، وأمره أن يقيم عنده ففعل وحظي فى أيامه (٥) .

وقد انتقل عبد الملك من دانية إلى إشبيلية ولم يزل بها إلى أن توفي بعد أن

---

(١) بغية الملتمس ص ١٢٠ ترجمة رقم (٢٧٩) .
(٢) نفح الطيب ٢/٢٤٤ .
(٣) نفسه ٢/٢٤٤ .
(٤) نفسه ٢/٢٤٤ .
(٥) طبقات الأطباء ٢/٦٤ .

خلف أموالا جزيلة وكثيراً من الرباع والضياع (١) ، وهذه الرواية تناقض رواية عبد الملك المراكشي الذي يذكر أن عبد الملك بن زهر توفي بدانية ودفن بازاء الجامع القديم مع قبر أبي الوليد الوقشي . (٢)

أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر :

هو جد أبي بكر بن زهر الحفيد ، ورث الطب عن أبيه عبد الملك وروى عنه وكان أبوه قد جلب من المشرق دواوين من فنون العلم على تفاريقها (٣) فعكف عليها أبو العلاء ، « وكان قد اشتغل بصناعة الطب وهو صغير في أيام المعتضد بالله أبي عمرو عباد بن عباد ، واشتغل أيضاً بعلم الأدب، وهو حسن التصنيف ، جيد التأليف ، وفي زمانه وصل كتاب القانون لابن سينا إلى المغرب وقال إبن جميع المصري في كتابه (التصريح بالمكنون في تنقيح القانون) أن رجلا من التجار جلب من العراق إلى الأندلس نسخة من هذا الكتاب قد بولغ في تحسينها ، فأتحف بها لأبي العلاء بن زهر تقربا إليه ، ولم يكن هذا الكتاب وقع إليه قبل ذلك ، فلما تأمله ذمه واطرحه ولم يدخله خزانة كتبه وجعل من طرره ما يكتب فيه نسخ الأدوية لمن يستفتيه من المرضى » (٤) .

ويقول عنه اليسع بن عيسى أحد معاصريه إنه كان مع صغر سنه تصرخ النجابة بذكره ، وتخطب المعارف بشكره ، ولم يزل يطالع كتب الأوائل متفهما، ويلقى الشيوخ مستعلماً حتى برز في الطب إلى غاية عجز الطلب عن

---

(١) طبقات الأطباء ٢/٦٤ .
(٢) الذيل والتكملة ٥/١/ ص ٣٧ .
(٣) نفسه ٥/١ ص ٣٧ .
(٤) طبقات الأطباء ٢/٦٤ — ٦٥ .

مرامها ، وضعف الفهم عن إبرامها ، وخرجت عن قانون الصناعة إلى ضروب من الشناعة ، يخبر فيصيب ، ويضرب فى كل ما ينتحله من التعاليم بأوفى نصيب ، ويشعر سابق مدى ، ويغبر فى وجوه الفضلاء علماً ومحتداً ويفوق الجلة سماحة وندى » (١) .

ويشير ابن أبى أصيبعة إلى براعة ابى العلا بن زهر فى الطب فيقول (٢) : « وله علاجات مختارة تدل على قوته فى صناعة الطب واطلاعه على دقائقها ، وكانت له نوادر فى مداواته المرضى ومعرفته لأحوالهم وما يجدونه من الآلام من غير أن يستخبرهم عن ذلك بل بنظرة إلى قواريرهم أو عندما يجس نبضهم » .

واحتفى ابن بسام بأبى العلاء بن زهر فى « الذخيرة » فأفرد له ترجمة واسعة وأثبت جملة وافرة من شعره فقال عنه « وكنا نتوقع الحمام حتى سطا وننتجع الغمام إلى أن أعطى ، لو ساجل البحر لفضحه ، أو وازن الدهر لرجحه ، نشأ بشرق الأندلس ، والآفاق تتهادى عجائبه ، والشام والعراق تتدارس بدائعه وغرائبه ، ومال إلى علم الأبدان ، فلولا جلالة قدره لقلنا جاذب هاروت طرفاً من سحره ، ولولا أن الغلو آفة المديح ، لتجاوزت طلق الجموح » (٣) .

ويقول ابن بسام إن أبا العلاء لم يزل مقيما بشرق الأندلس إلى أن كان من غزوة يوسف بن تاشفين فيمن انضم إليه من ملوك الطوائف إلى حصن

---

(١) طبقات الأطباء ٢/٦٥ .
(٢) نفسه ٢/٦٤ .
(٣) الذخيرة ٢/١/ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

لبيط ، فشخص الوزير أبو العلاء معهم ، فلقيه المعتمد واستماله واستهواه ، وصرف عليه بعض أملاكه (١) ولكن أبا العلاء لم يستقر بأشبيلية إلا بعد خلع المعتمد ، وقد حظى فى أيام المرابطين بمنزلة رفيعة ، ولكنه ظل على وفائه للمعتمد ، فبينما كان المعتمد معتقلا فى أغمات ، اعتلت بعض كرائمه ، فبادر أبو العلاء إليها ولاطف علاجها ، ورفع قدر المعتمد بالتبجيل ، ودعا له بالبقاء الطويل ، فكتب له المعتمد إثر ذلك بهذه الأبيات : (٢)

دعا لى بالبقاء وكيف يهوى ... أسير أن يطول به البقاء
أليس الموت أروح من حياة ... يطول على الشقى بها الشقاء
أ أرغب أن أعيش أرى بناتى ... عوارى قد أضر بها الحفاء

ويقول مخاطباً أبا العلاء :

جزيت أبا العلاء جزاء بر ... نوى براً وصاحبك العلاء
سيسلى الكل عما فات علمى ... بأن الكل يدركه الفناء

وأجابه أبو العلاء بأبيات قال فيها :

تنافست المراتب فيك حتى ... حللت العسر إذ نحب الشقاء
عزيز أن ينال البحر نهى ... وتسقى الكوثر العذب الرشاء
ويلقى فى متون الرمل ماء ... وتشكو غاية المحل السماء
ولكن الزمان بلؤم طبع ... على الحر الشريف له اعتداء
ومجدك إنه قسم عظيم ... به وجد السنا وله السناء

---

(١) الذخيرة ٢/١/ ٢٢٠ .
(٢) نفسه ٢/١/ ٢٢٧ .

لكنت الغيث إن محل تبدى ... وكنت الليث إن عن اللقاء
ومثلك عز قدرك عن مثيل ... يؤمل أن يطول له البقاء
لأنك فى سماء المجد نجم ... به لنواظر الدنيا جلاء
وغاية كل شىء لانتهاء ... وأنت لغاية المجد انتهاء

ويحتفظ ابن بسام لأبى العلاء ابن زهر بمقطوعات إخوانية تشير إلى توثق صلاته بعدد كبير من مشاهير عصره مثل حسام الدين بن رزين وأبى الوليد بن حزم والوزير أبى محمد بن عبدون ، وقد تقلد أبو العلاء منصب الوزارة فى عهد المرابطين ولذلك يصفه ابن دحية بقوله : « إنه كان وزير ذلك العهد وعظيمه ، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه » (١) . وقد توفى أبو العلاء ممتحناً من نغلة بين كتفيه سنة ٥٢٥ هـ بمدينة قرطبة .

ولأبى العلاء بن زهر تآليف كثيرة ذكرها ابن أبى أصيبعة منها :

- كتاب الخواص .
- كتاب الأدوية المفردة .
- كتاب الإيضاح بشواهد الإفتضاح فى الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين بن إسحاق فى كتاب المدخل إلى الطب .
- كتاب حل شكوك الرازى على كتب جالينوس .
- مقالة فى الرد على أبى على بن سينا فى مواضع من كتابه فى الأدوية المفردة ألفها لابنه أبى مروان .
- كتاب النكت الطبية ، كتب بها إلى ابنه أبى مروان .
- مقالة فى بسطه لرسالة يعقوب بن إسحاق الكندى فى تركيب الأدوية .

---

(١) المطرب ص ٢٠٣ .

وله تآليف خلاف ذلك وقد أمر بجمعها وجمع مثيلاتها على بن يوسف بن تاشفين بعد وفاة أبي العلاء ، فجمعت بمراكش وبسائر بلاد العدوة والأندلس وانتسخت فى جمادى الآخرة سنه ٥٢٦ هـ (١) .

أبو مروان : عبد الملك بن زهر بن عبد الملك بن زهر :

هو والد أبي بكر بن زهر الوشاح ، وقد أخذ أبو مروان عالم الطب عن أبيه أبي العلاء بن زهر كما روى الحديث عن أبي محمد بن عتاب (٢) ، وترجم له عبد الملك المراكشي فقال عنه : « كان وجيه بلده ، جليل القدر فى أهله ، نبيه السلف ، حظياً عند الأمراء والملوك ، متحققاً بصناعة الطب ، متقدماً فيها ، موفقاً فى علاج المرضى ، وكان أبو الوليد بن رشد يقول بتفضيله فى صناعته على غيره من أهل عصره ويرفع به ويشهد بمهارته . »(٣)

وقال عنه ابن أبي أصيبعة : « كان جيد الاستقصاء فى الأدوية المفردة والمركبة ، حسن المعالجة ، قد شاع ذكره فى الأندلس وفى غيرها من البلاد ، واشتغل الأطباء بمصنفاته . ولم يكن فى زمانه من يماثله فى مزاولة أعمال صناعة الطب ، وله حكايات كثيرة فى تأتيه لمعرفة الأمراض ومداواتها مما لم يسبقه أحد من الأطباء إلى مثل ذلك » . (٤) وقد عاش أبو مروان فى عهد المرابطين وخدم ملوكهم ونال من جهتهم من النعم والأموال شيئاً كثيراً (٥)، وصنف

---

(١) طبقات الأطباء ٢/٦٦ .

(٢) الذيل والتكملة ٥/١/ص ١٨ .

(٣) نفسه ٥/١/ص ١٨ .

(٤) طبقات الأطباء ٢/٦٦ .

(٥) نفسه ٢/٦٦ .

ليوسف بن تاشفين كتاب (الاقتصاد فى صلاح الأجساد) وفرغ منه سنة ٥١٥ هـ (١) . ولكنه تعرض لمحنة فى خلافة على بن وسف بن تاشفين حيث اعتقل بسجن مراكش مدة لأسباب لا نعلمها ثم سرح وعاد إلى بلده (٢) .

وقد أدرك أبو مروان دولة الموحدين واختصه عبد المؤمن بن على لنفسه وجعل اعتماده عليه فى الطب وأناله كثيراً من الإنعام والعطاء « وكان مكيناً عنده ، عالى القدر ، متميزاً على كثير من أبنـــاء زمانه » (٣) وألف له أبو مروان بن زهر كتاب (الترياق السبعينى) .

ويحتفظ ابن أبى أصيبعة بروايتين تدلان على براعة أبى مروان بن زهر فى الطب ، واستخدامه هذه الصناعة بطريقة عملية فذة ، فيذكر أن الخليفة عبد المؤمن بن على احتاج إلى شرب دواء مسهل ، وكان يكره شرب الأدوية المسهلة ، فتلطف له ابن زهر فى ذلك ، وأتى إلى كرمة فى بستانه ، فجعل الماء الذى يسقيها به ماء قد أكسبه قوة أدوية مسهلة بنقعها فيه أو بغليانها معه ، ولما تشربت الكرمة قوة الأدوية المسهلة التى أرادها وطلع فيها العنب وله تلك القوة الحيوية أعطى الخليفة عنقوداً منها وأشار عليه أن يأكل منه ، وكان حسن الاعتقاد فى ابن زهر ، فلما أكل منه وهو ينظر إليه ، قال له : يكفيك ياأمير المؤمنين ، فانك قد أكلت عشر حبات من العنب وهى تخدمك عشرة مجالس ، فاستخبره عن علة ذلك وعرفه به ، ثم قام على عدد ما ذكر له ووجد الراحة فاستحسن منه فعله هذا وتزايدت منزلته عنده (٤) .

---

(١) الذيل والتكملة ٥/١/ ص ١٨ - ١٩ .
(٢) نفسه ٥/١/ ص ١٩ .
(٣) طبقات الأطباء ٢/٦٦
(٤) نفسه ٢/٦٦ .

أما الرواية الثانية التى تدل على ممارسة أبى مروان بن زهر للطب بطريقة عملية فقد جاءت على لسان الشيخ محيي الدين بن عربى ، حيث ذكر أن أبا مروان كان فى وقت مروره إلى دار أمير المؤمنين باشبيلية يجد فى طريقه عند حمام أبى الخير بالقرب من دار ابن مؤمل مريضاً يشكو إليه حاله فنظر إليه فوجد عند رأسه إبريقاً عتيقاً يشرب منه الماء فقال له : اكسر هذا الإبريق فانه سبب مرضك ، فقال له : لا بالله ياسيدى ، فان مالى غيره ، فأمر بعض خدمه بكسره فكسره ، فظهر منها لما كسر ضفدع وقد كبر مما له فيه من الزمان ، فقال له ابن زهر : خلصت يا هذا من المرض . أنظر ما كنت تشرب ، وبرأ الرجل بعد ذلك (١) .

ويرى (بالنثيا) أن أبا مروان بن زهر يعتبر أعظم بنى زهر جميعاً فى صناعة الطب ، ويشير إلى طريقته وآرائه فى الطب فيقول (٢) : « وكان يأنف من الفصد والجراحات (على الرغم من أنه لجأ إلى الجراحة فى بعض الأحيان ونجح فيها) ، وكان يرى كذلك أنه لا ينبغى للطبيب أن يقوم بتحضير الأدوية ، فسبق بهذا إلى مفهوم الطب الحديث من فصل الجراحة عن الطب الباطنى وعن الصيدلة . وصرف همه كله إلى الطب الباطنى ، فألف فيه كتاب (الإقتصاد) وهو دراسة للطب عامة ، وكتب كتابا آخر فى الأغذية والأدوية ، وكتاباً ثالثاً يسمى (التيسير) أهداه إلى ابن رشد ، وهو كتاب تتجلى فيه شخصية ابن زهر بكل وضوح ، ويعتبر خير ما ألف العرب فى الطب العملى ، فقد تحرر فيه من كل ما كان يقيد غيره من آراء

---

(١) طبقات الأطباء ٢/٦٧ .
(٢) تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٧١ .

نظرية ، وهو يأخذ فيه بما تؤدى إليه الملاحظة المباشرة ، مفضلا ذلك على متابعة جالينوس وغيره من القدماء » .

وقد توفى أبو مروان بن زهر من نغلة صعبة أصابته وذلك سنة ٥٥٧ هـ وكانت وفاته بمراكش وقد نقل جثمانه إلى أشبيلية حيث دفن فى مقبرة بنى زهر خارج باب الفتح .

الفصل الثانى

ابن زهر الحفيد

حياته وصفاته وثقافته